تأثر حركة الإصلاح الدينى والإجتماعى فى مصر بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية

دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

تمهيد:

نهض الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فى منتصف القرن الثانى عشر الهجرى، الثامن عشر الميلادى، يدعو الناس الى اخلاص العبادة لله وحده، والرجوع بالاسلام الى اصوله الأولى، وانتشرت دعوة الشيخ وذاعت(١) وأصبحت فى مقدمة الأحداث الكبرى التى هزت الركود، الذى خيم على العالم العربى بعامة وقلب شبه جزيرة العرب بخاصة رغم صعوبة الظروف التى تمت فيها هذه الدعوة، التى استطاعت بفضل جهود الشيخ وتلاميذه، وتأييد آل سعود السياسى(٢) لها، أن تصبح نموذجا لما جاء بعدها من حركات الاصلاح الدينى والاجتماعى فى جميع أرجاء العالم الاسلامى، حتى صارت بمثابة الأم لهذه الحركات، أو بمثابة النهر الكبير الذى تتفرغ منه جداول صغيرة.

ولاجدال فى أن هذه الدعوة، قد لعبت دورا بارزا، فى التغير الحضارى الذى أصاب المنطقة العربية منذ الربع الأخير من القرن الثانى عشر الهجرى، الثامن عشر الميلادى(٣)، فقد شهدت المنطقة عن طريق الدعوة الى التوحيد، وازالة ماعلق بتعاليم الاسلام من خرافات وأوهام، ومحاولة تحرير الفكر، وفتح باب الاجتهاد وبث روح التعليم، والبحث والتنقيب عما تزخر به كتب الأصول من مبادىء صحيحة – شهدت نشاطا فكريا كان قد غاب عنها منذ أمد طويل(٤)، هذا الى جانب النشاط السياسى الذى واكب هذه الدعوة الدينية، ومحاولة توحيد الأمة العربية، ومن هنا جاء دورها فى التغيير الحضارى، الذى أصاب منطقتنا العربية منذ تلك الفترة وحتى يومنا هذا، لذا كان لابد من القاء نظرة حول المبادىء التى ارتكزت عليها الدعوة، لنرى الى أى مدى كان تأثيرها فى حركات الاصلاح السلفى التى أتت بعدها بعامة، ودعوة حركة الاصلاح الدينى والاجتماعى فى مصر بخاصة، عن طريق الدراسة المقارنة لمبادىء الدعوتين ومدى تأثر الثانية بالأولى. وهنا لابد من الاشارة الى أن مبادىء الدعوة السلفية وفكرها، كانا يجدان منذ مطلع القرن التاسع عشر، تعاطفا واعجابا من العلماء المصريين فنجد أن عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ المصرى المعاصر لانتشار مبادىء الدعوة يبدى اعجابه بها ويدافع عنها، وكذلك فعل بعض علماء الازهر ولكن التيار المضاد للمبادىء السلفية فى مصر فى تلك الفترة، كان أقوى من تعاطف وأعجاب المفكرين المصريين، بحكم أن والى مصر، هو الذى كان يقود هذا التيار المضاد بناء على تكليف الدولة العثمانية له، بمحاربة هذه الدعوة والقائمين عليها.(٥)

ولكننا نجد أنه حينما بدأت حركة الاصلاح الدين والاجتماعى فى مصر فى الربع الأخير من القرن الثالث عشر الهجرى، التاسع عشر الميلادى، على يد الشيخ محمد عبده وتلاميذه، نجد أن نفس المبادىء التى قام الشيخ محمد بن عبد الوهاب يدعو اليها، هى نفس المبادىء التى قامت عليها الحركة فى مصر، فقد شب الشيخ محمد عبده فى مصر، وتعاليم الشيخ محمد بن عبد الوهاب تملأ الجو، «فهداه اجتهاده وبحثه الى هذين الأساسين اللذين بنى عليهما محمد بن عبد الوهاب تعاليمه وهما:

١– محاربة البدع وما دخل على العقيدة الاسلامية من فساد باشراك الاولياء والقبور والأضرحة مع الله تعالى.

٢– فتح باب الاجتهاد الذى اغلقه ضعاف العقول من المقلدين، وجرد نفسه لخدمة هذين الغرضين.(٦)

ومن هنا كان بحثنا عن أوجه هذا التأثر بمبادىء الدعوة السلفية، وفى مجال هذين الاساسين اللذين قامت عليهما حركات الاصلاح السلفى فى العالم الاسلامى بعامة، فواضح أن المصلحين المسلمين، أدركوا ان سر الضعف الذى حل بالعالم الاسلامى، ووقوع الشعوب الاسلامية فريسة سهلة فى قبضة الدول الاستعمارية، يعود فى أساسه الى ابتعاد المسلمين عن تعاليم دينهم الصحيحة، ولذا كان إدراكهم أن التقدم والتطور لايتأتيان لهذه الأمة الا برجوعها وتمسكها بمبادىء الاسلام فى صورتها السليمة التى حددتها النصوص القرآنية وأحاديث الرسول، وأقوال السلف، وأتخاذ هذه المبادىء منطلقا للنهضة.

أولا : الدعوة الى التوحيد

كانت الدعوة الى التوحيد الذى (هو مزية الاسلام الكبرى) هى المبدأ الأول الذى ارتكزت عليه الدعوة السلفية، وتأثرت بها الحركة الاصلاحية فى مصر، والعالم الاسلامى، فالله وحده هو (خالق هذا العالم والمسيطر عليه، وواضع قوانينه التى يسير عليها والمشرع له، وليس فى الوجود ذو سلطة حقيقية تسير العالم، وفقا لما وضع من قوانين الا هو، وليس فى الوجود من يستحق العبادة والتعظيم الا هو(٧))، واعتمد الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى دعوته الى التوحيد - بالدرجة الأولى - على النصوص القرآنية، والاحاديث النبوية، وأثار السلف، مستخرجا هذه النصوص من مصادرها، ومصنفا لها مواضعها، وقد جاء كتابه -التوحيد الذى هو حق الله على العبيد(٨)- فى أبوابه جميعها مليئا بهذه البراهين، حتى لايدع لمعترض حجة يعترض بها، فالله سبحانه وتعالى يقول (قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد(٩)) ويقول (وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين إحسانا(١٠)) ويقول (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا تعبدوا الا الله، ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون(١١)).

والرسول صلى الله عليه وسلم قال (واذا سألت فاسأل الله(١٢)) وقال (من قال لا اله الا الله، وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه، وحسابه على الله عز وجل(١٣)).

وهكذا كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب يدعو أهل عصره وبيئته الى التوحيد الخالص من كل شائبه، بعد أن رأى ماكان يلصقه أهل عصره بتعاليم الاسلام من الأمور الشركية، ثم جاء الشيخ محمد عبده من بعده وبعد أن اطلع على آراء الشيخ، فدعا اهل عصره

وحثهم اذا كانوا يريدون التقدم والتخلص مما حاق بهم من آثام، الى الرجوع بالاسلام الى أصوله الأولى مبينا ضيقه بالبيئة التى نشأ فيها، ومنهاج اصلاحها قائلا «وجدت أننى نشأت كما نشأ كل واحد من الجمهور الاعظم من الطبقة الوسطى من سكان مصر، ودخلت فيما فيه يدخلون، ثم لم ألبث بعد قطعة من الزمن أن سئمت الاستمرار على ما يألفون واندفعت الى طلب شيء مما لايعرفون، فعثرت على مالم يكونوا يعثرون عليه، وناديت بأحسن ماوجدت، ودعوت اليه، وارتفع صوتى بالدعوة الى أمرين عظيمين:

الأول: تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع فى كسب معارفه الى ينابيعها الأولى، واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه، وتقلل من خلطه وضبطه لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم الانسانى»(١٤) واذا كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى دعوته الى التوحيد، أوضح للناس الأدلة القرآنية والاحاديث النبوية الدالة على ذلك، فان الشيخ محمد عبده كان متأثرا بهذا الاتجاه، فأخذ يدعو تلاميذه خاصة والناس عامة الى معرفة معنى التوحيد وأصوله معتمدا تقريبا على نفس الأدلة القرآنية والاحاديث النبوية، مع ابراز فلسفته الخاصة بدعوته الناس الى التوحيد، فيقول (جاء الدين الاسلامى بتوحيد الله تعالى فى ذاته وأفعاله، وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين، فأقام الأدلة على ان للكون خالقا واحدا متصفا بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلية كالعلم والقدرة والارادة وغيرها وعلى أنه لايشبهه شيء من خلقه، وان لانسبة بينه وبينهم الا انه موجدهم وانهم له واليه راجعون، «قل هو الله أحد، الله الصمد لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد»(١٥)). ثم يقول (نصُّ الكتاب على أن دين الله فى جميع الأزمان هو إفراده بالربوبية والاستسلام له وحده بالعبودية، وطاعته فيما أمر به ونهى عنه، مما هو مصلحة للبشر، وعماد لسعادتهم فى الدنيا والآخرة(١٦)).

ومما ينهض دليلا على تأثر الشيخ محمد عبده بالدعوة السلفية وفكرها، انه وضع كتابه (رسالة التوحيد) وكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب، قد سبقه فى الكتابة فى موضوع التوحيد حينما وضع كتابه (التوحيد الذى هو حق الله على العبيد)، أليس فى هذا دليل واضح على تأثر الشيخ محمد عبده بفكر الدعوة السلفية وجوهرها؟، فاذا كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب أعلن من قبل (أن التوحيد الذى دعت اليه الرسل من أولهم الى آخرهم إفراد الله بالعبادة كلها ليس فيها حق لملك مقرب، ولا نبى مرسل فضلا عن غيرهم(١٦)»، فان الشيخ محمد عبده جاء من بعده بزمان متأثرا به فأعلن (أن دين الله فى

جميع الأزمان، هو افراده بالربوبية، والاستسلام له وحده بالعبودية، وطاعته فيما أمر به، ونهى عنه(١٧))، واذا كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد وقف من قبل محمد عبده بقرن من الزمان يقاوم الأمور التى تعد نواقض للتوحيد، مثل زيارة القبور واتخاذها أمكنة للعبادة، قائلا «فمن عبد الله ليلا ونهارا ثم دعا نبيا أو وليا عند قبره فقد اتخذ إلهين اثنين، ولم يشهد ان لا اله الا الله، لأن الاله هو: المدعو كما يفعل المشركون اليوم عند قبر الزبير أو عبد القادر وغيرهم(١٨)»، كما أنكر الشفاعة من غير الله والاعتقاد فى قدرة الأولياء على الاتيان بالخوارق والمعجزات والاستغاثة بهم لجلب نفع أو ضر، فكل من غلا فى نبى أو صحابى أو رجل صالح، وجعل فيه نوعا من الالهية، مثل أن يقول ياسيدى فلان أغثنى أو أنا فى حسبك ونحو هذا، فهو كافر يستتاب، فان تاب والا قتل، فان الله سبحانه انما ارسل الرسل، وانزل الكتب ليعبد ولايدعى معه إله آخر. وقد قال كذلك (واعلم ان المشركين فى زماننا قد زادوا على الكفار فى زمن النبى ﷺ، بانهم يدعون الأولياء الصالحين فى الرخاء والشدة ويطلبون منهم تفريج الكربات وقضاء الحاجات(١٩)). وفى مجال نهيه عن الشرك، وعدم دعوة احد غير الله لجلب نفع أو دفع ضر ذكر (ولايدعى لكشف الضر الا هو، ولا لجلب الخير الا هو، ولاينذر الا له ولايحلف الا به، ولا يذبح الا له، وجميع العبادات لاتصلح الا له وحده لاشريك له)، معتمدا فى كل ذلك على النصوص القرآنية مثل قوله تعالى (ولاتدع من دون الله مالا ينفعك ولايضرك، فان فعلت فانك اذا من الظالمين، وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم(٢٠))، وقوله تعالى (ان الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا، فابتغوا عند الله الرزق، واعبدوه واشكروا له، اليه ترجعون(٢١))، وقوله (ومن اضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامه، وهم عن دعائهم غافلون، واذا حشر الناس كانوا لهم اعداء وكانوا بعبادتهم كافرين)، وقول الرسول (انه لايستغاث بى، وانما يستغاث بالله)، وغير ذلك من النصوص القرآنية والاحاديث النبوية التى أثبتها الشيخ فى رسائله العديدة التى أرسلها الشيخ لمعاصريه موضحا بها حقيقة دعوته وجوهرها.

وفى أبواب كتابة التوحيد، حيث خصص لكل بدعة يراها مناقضة للتوحيد بابا مثبتا أدلته، ومايستفاد منها من معان، حتى انه يمكن القول باطمئنان ان كتاب التوحيد يعد بحق موسوعة علمية فى مجال علم التوحيد، كما يدل على مدى تعمق الشيخ فى دراسته للاصول دراسة علمية جادة، كما تدل على سعة أفقه واجتهاده.

ومن بعد جاء الشيخ محمد عبده متأثرا بهذا المنهج الذى نهجه صاحبُ الدعوة السلفية

مبينا خطورة مايشوب أفعال العباد من الأمور الشركية، وان السبب وراء الحوادث التى ألمت بالممالك الاسلامية انما يكمن فى الحيدة «عن اوامر الله» والابتعاد عن الصراط المستقيم الذى رسمه لهم، واشراك غيره معه فى عبادته وان لشيء من الاشياء سلطانا على ماخرج عن قدرة المخلوقين، وهو اعتقاد من يعظم سوى الله مستعينا به فيما لايقدر العبد عليه، كالاستنصار فى الحرب بغير قوة الجيوش، والاستشفاء من الأمراض بغير الأدوية التى هدانا الله اليها، والاستعانة على السعادة الآخروية أو الدنيويه بغير الطرق والسنن التى شرعها الله لنا(٢٢).

هذا هو الشرك الذى كان عليه الوثنيون ومن مائلهم فجاءت الشريعة الاسلامية بمحوه ورد الأمر فيما فوق القدرة البشرية والأسباب الكونية الى الله وحده، وتقرير امرين عظيمين هما ركنا السعادة وقوام الأعمال البشرية:

الأول : أن العبد يكسب بإرادته وقدرته، ماهو وسيلة لسعادته.

الثانى : ان قدرة الله هى مرجع لجميع الكائنات، وان من آثارها مايحول بين العبد وبين انفاذ مايريده، وان لاشيء سوى الله يمكن له ان يمد العبد بالمعونة فيما يبلغه كسبه.

جاءت الشريعة لتقرير ذلك وتحريم ان يستعين العبد بأحد غير خالقه فى توفيقه الى اتمام عمله بعد إحكام البصيرة فيه، وتكليفه بأن يرفع همته الى استمداد العون منه وحده بعد أن يكون قد افرغ ماعنده من الجهد فى تصحيح الفكر واجادة العمل، ولايسمح العقل ولا الدين لأحد أن يذهب الى غير ذلك.

وهذا الذى قررناه قد اهتدى اليه سلف الأمة فقاموا من الأعمال بما عجبت له الامم.

أكرر القول بأن الأيمان بوحدانية الله لايقتضى من المكلف الا اعتقاده أن الله صرفه فى قواه فهو كاسب لايمانه، ولما كلفه الله به من بقية الاعمال، واعتقاد ان قدرة الله فوق قدرته، ولها وحدها السلطان الأعلى فى أتمام مراد العبد بازالة الموانع أو تهيئة الأسباب المتممة، مما لايعلمه ولا يدخل تحت ارادته(٢٣).

هكذا نرى أن كلا المصلحين كان يؤمن انه لايمكن اصلاح حال الأمة الاسلامية الا

بما صلح به أولها أى بالعقيدة السليمة البريئة من الشرك والكف عن الرجوع الى العادات الجاهلية ومحاولة اطفاء جذور التوحيد «والاعتماد على غير الله، والسعى الى تعظيم مالا ينفع، وتوفير مالا يضر فان ذلك اضر – بالمسلمين جيمعا ضررا بليغا، فقد تأخر مجتمعهم، وشاع الجهل بينهم وذل جانبهم، وتقدم غيرهم عليهم، واستعمرت بلادهم، وتحكم فيهم من هم اقل منهم عددا وأضعف اعتقادا(٢٤).

ثانيا: الدعوة الى فتح باب الأجتهاد :

وإذا ما انتقلنا الى الأساس الثانى الذى قامت عليه الدعوة السلفية وكان أحد اركان حركة الأصلاح الدين فى مصر، ونعنى به فتح باب الأجتهاد فاننا نجد أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، قد دعا الى الأجتهاد الذى لايخالف نصوص القرآن وسنة الرسول وآثار السلف «وكل مستوف أدوات، الاجتهاد له الحق ان يجتهد، بل عليه ان يفعل ذلك ويستخرج من الأحكام حسب فهمه لنصوص الكتاب، وماصح من السنة مايؤديه اليه اجتهاده.(٢٥) ولم يلتزم الشيخ واتباعه بمذهب احمد بن حنبل – الذى كانوا يتبعونه – فى كل الأحوال بل انهم فى بعض المسائل الفرعية التى تؤيد بنص من القرآن والسنة ورأى احد الائمة الثلاثة الآخرين، أخذوا به، وتركوا رأى احمد بن حنبل «كما فى مسألة ارث الجد والأخوة، واى الفريقين يقدم على الآخر فى الارث، فانهم فى ذلك يخالفون رأى ابن حنبل ويتبعون رأى الأئمة الثلاثة الآخرين، فيقدمون الجد بالارث، لان هذا هو الذى صح عندهم وترجح»(٢٦).

ودعا الشيخ الى تحرير الفكر، وأعلن حربه على المقلدين المعاندين، وظل صامدا لهم، واستمر فى مواصلة اجتهاده معلنا ان باب الأجتهاد مفتوح امام كل راغب، وأوضح موقف الأسلام من كثير من الأمور التى كانت شائعة فى عصره وندد بها، وحاربها، واعلن انها تعد خروجا عن تعاليم الاسلام، وهكذا يدرك الباحث أن الشيخ بدعوته الى فتح باب الأجتهاد، انما عمد (الى تجديد العقل الأسلامى وتطويره فى نطاق الكتاب والسنة) مدركا ان قفل باب الأجتهاد انما يؤدى الى تجميد الفكر، وكبت الاستنتاج السليم، وهذا يؤدى بدوره الى تأخر المسلمين وجهلهم مما يدفع بهم «الى الاعتقاد فى الخرافات، وتقبل البدع، وتلقف الضلالات فى سرعة ويسر، ثم لاتلبث هذه الخرافات، وتلك البدع ان تصبح تقليدا وعرفا، ثم لايلبث التقليد والعرف ان يتحولا الى عقيدة أو الى مايشبه العقيدة» وكان الشيخ أراد من فتح باب الاجتهاد كذلك «أن يدلف من خلاله الى مسحة من تجديد الفكر الدينى»(٢٧).

ثم جاء الشيخ محمد عبده من بعده، وعاش كما سبقت الاشارة فى جو كانت تملأه تعاليم الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وانغمس فى الحياة السياسية ورحل الى أوربا وأطلع على الثقافة الفرنسية، وخالط علماء الغرب وفلاسفته، فلما تعرض لمثل ماتعرض له ابن عبد الوهاب فلسف الدعوة وركوزها على اسس نفسية واجتماعية، كما شارك فى تركيزها على الأسس الدينية»(٢٨). وقد امتاز فى قضائه بتحريه الحق، وتقديره العدالة، اكثر مما يقدر نصوص القانون، ويرجع هذا الى سعة أفقه ودراسته للشريعة الاسلامية وعدم تشكله تماما بالقالب القانونى». كما ان له أموراً اجتهادية كثيرة تظهر فى الفتاوى التى اصدرها اثناء توليه منصب الافتاء فى مصر كما اتخذ من تفسيره للقرآن وسيلة الى بلوغ هدفه من الأصلاح والأجتهاد فاذا «اتصلت الاية بالاخلاق أبان أثر هذا الخلق فى صلاح الأمم، وضياعه فى فسادها، واذا اتصلت بحالة اجتماعية أوضح أثر هذه الحالة الأجتماعية فى حياة الأمم مسترشدا بما يجرى فى العالم، فى بيان متدفق ولسان ذلق، وصوت جميل آخاذ، فهو فى تفسيره عملى يشرح الواقع ويبين سببه، وهو اخلاقى يدعو للعمل على مبادىء الأسلام «وهو فى تفسيره يحاول التوفيق بين الأسلام ونظريات المدنية الحديثة ويتبع طرقا من التأويل للتوفيق بين الدين ونظريات العلم»، معليا بذلك شأن العقل فى تفسير القرآن وانه يجب طرح رؤية السابقين من المفسرين، فى سبيل تفسير القرآن تفسيرا حديثا مستنيرا، ولكن يجب على كل من يتصدى لمثل هذا العمل الجليل ان يتزود «بالاسلحة والأدوات اللغوية وشىء من أسباب النزول، ومعلومات السيرة النبوية، ومعارف التاريخ الأنسانى عن حياة الكون والشعوب التى يعرض لها القرآن الكريم»(٢٩)، ولذا فاننا نجد يهيب بالمسلم أن يداوم «على قراءة القرآن، وتفهم اوامره ونواهيه ومواعظه وعبره كما كان يتلى على المؤمنين والكافرين أيام الوحى(٣٠)، ناصحا له بأن يحاذر النظر الى وجوه التفاسير الا لفهم لفظ مفرد غاب عنك مراد العرب منه أو ارتباط مفرد بآخر خفى عليك اتصاله، ثم اذهب الى مايشخصك القرآن اليه، واحمل بنفسك على مايحمل عليه، وضم الى ذلك مطالعة السيرة النبوية، واقفا عند الصحيح المعقول، حاجزا عينيك عن الضعيف والمبذول»(٣١) ويجب على المسلم أن يسلك هذا السبيل أى سبيل الأجتهاد مستخدما العقل الذى هو طريق معرفة الله، فالعقل هو «قوة القوى الأنسانية وعمادها، والكون جميعه هو صحيفته التى ينظر فيها، وكتابه الذى يتلوه، وكل مايقرأ فيه، فهو هداية الى الله، وسبيل للوصول اليه»(٣٢)

فالله قد اطلق للعقل البشرى أن يجرى فى سبيله الذى سنته له الفطرة بدون تقييد، «وظل الشيخ فى رسائله واعماله يدعو الى استعمال العقل والأجتهاد لفهم النص القرآنى

الذى هو «كتاب دين أولا وقبل كل شىء»(٣٣). ومن هنا كانت حتمية الأجتهاد لفهمه، وازالة عقبات الجمود والخرافة والتقليد التى سيطرت على العقلية الاسلامية، واصابتها بالتخلف.

هكذا نرى كيف كان اتصال مصر بمبادىء الدعوة السلفية قويا ومباشرا حتى أن الباحث يشعر وكأن الدعوة الى هذه المبادىء قد تجددت فى مصر على يد الشيخ محمد عبده وتلاميذه، واذا قيل ان حركة الاصلاح فى مصر كان لها أسلوبها الخاص الذى تتسم به، الا انها فى حقيقة الأمر لم تخل من روح الدعوة السلفية التى ظل أثرها يظهر ويتضح، حتى اصبح موضوع الدفاع عن الدعوة واتباعها هو التيار الغالب فى الحياة الفكرية المصرية فى الربع الأول من قرننا هذا بين مؤيد ومعارض، واصبح النشاط السلفى فى مصر له ركائزه التى يعتمد عليها، وقد تزعم هذا النشاط السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار، ورفاقه، وثار جدل فكرى بين علماء مصر فى المنتديات وعلى صفحات الدوريات المصرية، حول حقيقة الدعوة السلفية وجوهرها، مما أثرى الفكر الدينى فى تلك الفترة ونبه الناس الى أهمية العودة الى تعاليم الاسلام الأولى، فها هو السيد رشيد رضا يكتب عن الشيخ محمد ابن عبد الوهاب، ويذكر الناس بدوره فى تخليص تعاليم الاسلام مما علق بها قائلا «وكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب، رحمه الله تعالى مجددا للاسلام فى بلاد نجد بأرجاع أهله عن الشرك والبدع التى فشت فيهم الى التوحيد والسنة على طريقة شيخ الاسلام ابن تيمية»(٣٤)، وأخذ يكتب عن مضار البدع التى يرتكبها الناس مثل زيارة القبور والنذور لغير الله والاستغاثة فى المجتمع الاسلامى، وجادل الفريق المعارض للمبادىء السلفية من رجال الأزهر وغيرهم مؤكدا لهم أن أصول الدعوة السلفية لم تخرج عن طريق أهل السنة والجماعة وقد ذكر عن موقف من هذه المواقف قائلا، «وقد كنت لدى الاستاذ الأكبر شيخ الجامع الازهر فذكرت الوهابية (يقصد اتباع الدعوة) وسبب الطعن فيهم، وكان من حاضرى المجلس الاستاذ الشيخ عبد المجيد اللبان والاستاذ الشيخ محمد شاكر، والاستاذ الشيخ احمد هارون، والاستاذ الشيخ الظواهرى، وغيرهم من كبار العلماء فبينت لهم تاريخ المسألة، ومن كتب فيها على بينة من المؤرخين عند استيلاء الأمير سعود على الحجاز، ثم ذهب احد سعاة سكرتارية الأزهر الى مكتبة المنار فجاء بعشرات النسخ من الهدية السنية ووزعت عليهم وقرأ الاستاذ الأكبر مانقلناه هنا ومافصل فيها مما لم ننقله، واعترف بانه مذهب أهل السنة والجماعة الى انه قال ان حديث «لاتشد الرجال الا الى ثلاثة مساجد مسجدى هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى» قد أوله العلماء، قلت وهم قد اخذوا بظاهره تبعا لبعض المحققين من علمائهم، «أعنى الحنابلة» وأزيد بعض

الشافعية والمالكية حرم شد الرجال لزيارة قبول الصالحين كالامام الجويني والد امام الحرمين واختاره القاضي عياض فى شرحه لصحيح مسلم كما نقله عنه النووى، فأخذ الوهابية بذلك لهم سلف فيه وليسوا أول من قال به.(٣٥)

ولم يقتصر جهد رشيد رضا ودفاعه عن الأفكار والمبادىء السلفية على المقالات التى سودها فى كل من الأهرام والمنار وبل انه عن طريق مطبعة المنار تمكن من نشر رسائل ومؤلفات البارزين من علماء الدعوة السلفية حتى غدت دار المنار القاعدة الاساسية للدفاع عن مبادىء الدعوة السلفية ضد التيار المضاد لها والذى تزعمته جريدة المقطم واستقطبت المعركة فريقين من العلماء، وأخذ كل فريق يدافع عن موقفه، وأثمرت هذه المعركة عن كم ضخم من المؤلفات والمقالات التى لاشك في انها ذات أهمية فى دراسة حركة الاصلاح الديني في مصر والعالم الاسلامي.

ومما هو جدير بالذكر ان هذا الجدل الفكرى حول مبادىء الدعوة السلفية لم يكن مقصورا على العاصمة فقط (القاهرة)، وانما امتد الى جميع انحاء البلاد وبلغ اقصى درجاته فى مدينة الاسكندرية حيث استعمل العنف فى بعض المواقف وكان الخلاف بين اتباع الدعوة السلفية وخصومهم قائما حول ثلاثة أمور: الشفاعة، التوسل، والصلاة والسلام على النبى جهرا عقب الآذان، واحتكم الفريقان الى مشيخة علماء الاسكندرية بعد أن تدخل البوليس لديها، فوضعت للأمر حدا، وقد كتب الشيخ محمد تاج الدين أحد علماء الاسكندرية رسالة بعنوان «الرسالة الرملية فى فصل الخلاف بين أهالى الرمل ودعاة الوهابية» فرد عليه أحد أتباع الدعوة وهو الشيخ محمد عبد الظاهر أبو السمح برسالة عنوانها «الرسالة المكية فى الرد على الرسالة الرملية».

ويكفى دليلا على احتدام النزاع بين أتباع الدعوة وخصومهم، ان حركة التأليف فى الموضوعات التى تتناول مبادىء الدعوة، قد نشطت نشاطا لم يسبق له مثيل من كلا الجانبين، كما ان القاهرة شهدت حركة نشطة فى طبع مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب وابنائه، ورسائلهم والمؤلفات النجدية الأخرى مفردة وفى مجموعات، واستمر النشاط فى طبع هذه المؤلفات حيث تبنت جماعة أنصار السنة المحمدية اخراج هذه المطبوعات ونشرها على الناس ايمانا منها بأهمية نشر هذه المؤلفات فى افادة الناس فى أمور دينهم.(٣٦)

وهكذا يمكن أن نخرج من العرض السابق بالحقائق التالية:

أولا : ان مصر لم تكن تعيش بمعزل عن فكر الدعوة السلفية منذ فترة مبكرة ومهما كان موقف السلطة السياسية فى مصر فى بعض الفترات من هذا الفكر، فانه ظل ينتشر ويبرز حتى كسب كثيرا من الأنصار.

ثانيا: حينما بدأت حركة الاصلاح الدينى فى مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، بدأت على أساس من المبادىء السلفية، فالشيخ محمد عبده قام يدعو الناس الى الايمان بأمور دينهم على أسسها السليمة، لتكون لهم العون فى وقوفهم فى وجه المحاولات الاستعمارية التى تريد السيطرة عليهم وأضعاف دينهم مستوحيا أهدافه ومبادئه من نفس أهداف ومبادىء الدعوة السلفية (التوحيد – الاجتهاد) كما دعا الى مقاومة نفس البدع التى قام الشيخ محمد بن عبد الوهاب من قبله يدعو الى مقاومتها وكتب رسالة التوحيد على نمط مافعل الشيخ محمد بن عبد الوهاب حينما كتب كتابه «التوحيد الذى هو حق الله على العبيد» وان ناقش كل منها الموضوع بالاسلوب الذى راقه الا أن الدراسة المقارنة للكتابين توضح أن مصادرهما واحدة (القرآن – السنة – أثار السلف» فضلا عن تأثر اللاحق بالسالف.

ثالثا: وجدت حركة الاصلاح فى مصر انه لاستمرار مسيرتها، لا مناص أمامها الا باعتناق مبادىء الدعوة السلفية نفسها كأسس لها، ومن هنا كانت الدعوة جهارا الى الدعوة الوهابية، واحتدام النزاع بين المؤيدين والمعارضين بالصورة التى اشرنا اليها من قبل.

ومن هنا يمكننا ان نحكم باطمئنان ان حركة الاصلاح السلفى فى مصر كانت متأثرة تأثيرا كبيرا بالدعوة السلفية على الشكل الذى رسمنا خطوطه العريضة فى هذا البحث.

(١) يطلق على هذه الدعوة «اسم الدعوة السلفية» و «الدعوة الوهابية»، انظر بهذا الخصوص احمد امين، زعماء الاصلاح فى العصر الحديث، ص ١٠، دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن، الدولة السعودية الاولى، ط ٢. الفصل الثانى.

Yale, William, the Near East, Amodern Histry, PP 62-64.

(٢) تم الاتفاق بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والامير محمد بن سعود عام ١١٥٨هـ/١٧٤٥م، دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن، المصدر السابق، ص ٤٠-٤٣.

Fisher, Sydney Netrleton, the Middle East, PP 280-281.

(٣) بخصوص دور الدعوة السلفية فى التغير الحضارى، انظر، دكتور محمد احمد خلف الله (الوهابية) دكتور مصطفى

الشكعة (الوهابية منهج وتطبيق). وهما بحثان القيا ضمن أبحاث ندوة التغير الحضارى لمنطقة الشرق الاوسط فى العصر الحديث والتى عقدها مركز بحوث الشرق الاوسط بجامعة عين شمس فى الفترة من ١١–١٤ ديسمبر ١٩٧٦م.

(٤) تناولت كل الدراسات التى أجريت فى الفترة المعاصرة عن تاريخ الفكر العربى، دور الحركة السلفية فى هذا المجال، انظر على سبيل المثال، على المحافظة ، الاتجاهات الفكرية عند العرب فى عصر النهضة ١٧٩٨–١٩١٤م، الاتجاهات الدينية والسياسية والاجتماعية والعلمية، ص ٣٩–٤٤، احمد عبد الرحيم مصطفى، حركة التجديد الاسلامى فى العالم العربى الحديث، عبد الكريم الخطيب، محمد بن عبد الوهاب العقل الحر، والقلب السليم.
Hourani, Albert, Arabic Thought in the Liberal Age 1798-1939, PP 37-38.

(٥) انظر بخصوص هذا الموضوع: دكتور محمد محمود السروجى، عبد الرحمن الجبرتى وموقفه من الدعوة الوهابية، بحث القى فى الندوة الدولية لمصادر تاريخ الجزيرة العربية، بجامعة الرياض، ابريل ١٩٧٧م، دكتور مصطفى الشكعة البحث السابق، ص ١٥.

(٦) احمد امين، المصدر السابق، ص ٢٣ .

(٧) احمد امين، المصدر السابق، ص ١٠ – ١١ .

(٨) الطبعة التى اعتمدنا عليها فى هذا البحث هى طبعة، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، ضمن مؤلفات الشيخ الامام محمد بن عبد الوهاب، القسم الاول، العقيدة والآداب الاسلامية، ص ٧–١٥١، وجميع الصفحات التى نشير اليها من صفحات هذه الطبعة.

(٩) سورة الاخلاص .

(١٠) سورة الاسراء آية ٢٣ .

(١١) سورة آل عمران، آية ٦٤ وجميع هذه النصوص القرآنية وردت فى كتاب التوحيد فى صفحات متفرقة.

(١٢) التوحيد، ص ٣٤ .

(١٣) التوحيد، ص ٣٤ .

(١٤) دكتور محمد عمارة، الأعمال الكاملة للامام محمد عبده، ج ١، ص ١٨١، محمد رشيد رضا تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده، ج ١، ص ١١ .

(١٥) محمد عبده، رسالة التوحيد، تحقيق محمود ابو ريه، ص ١٣٥ .

(١٦) نفسه، ص ١٤٤

(١٧) جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، القسم الخامس، الرسائل الشخصية، رسالة أرسلها الى عبد الرحمن بن ربيعه، مطوع أهل ثادق، ص ١٦٦.

(١٨) محمد عبده، المصدر السابق، ص ١٤٤ .

(١٩) محمد بن عبد الوهاب، المصدر السابق ص ١٦٦ .

(٢٠) على المحافظة، المصدر السابق، ص ٤٢ – لمزيد من التفصيل حول كل هذه الامور انظر «الرسائل الشخصية» للشيخ محمد بن عبد الوهاب، القسم الخامس من مؤلفات الشيخ الامام محمد بن عبد الوهاب، نسخة جامعة الامام محمد بن سعود.

(٢١) سورة يونس، آيات ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٢٢) سورة العنكبوت، آية ١٧ .

(٢٣) محمد عبده، المصدر السابق، ص ٦٥ .

(٢٤) نفسه، ص ٦٥ – ٦٦ .

(٢٥) دكتور مصطفى الشكعة، المصدر السابق، ص ١٤ .

(٢٦) نفسه ، ص ١٥ .

(٢٧) دكتور محمد عبد الله ماضى، النهضات الحديثة فى جزيرة العرب، ج ١، ص ٣٩ .

(٢٨) دكتور مصطفى الشكعة، البحث السابق، ص ١١ .

(٢٩) احمد امين، المصدر السابق، ص ٢٣ .

(٣٠) د. محمد عمارة، المصدر السابق، ص ١٨٣ .

(٣١) نفسه ، ص ١٨٣ .

(٣٢) نفسه ، ص ١٨٣ .

(٣٣) نفسه، ص ١٨٣ .

(٣٤) نفسه، ص ١٨٥ .

(٣٥) دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن، محاضرات فى تاريخ العالم العربى الحديث والمعاصر، ص ٧٢-٨٩، محمد ر
رضا، مجلة المنار، المجلد الأول، ص ٤٦٨-٤٦٩.
ncyclopaedia Britannica, Vol. 23, PP 144-145.

(٣٦) محمد رشيد رضا، الوهابيون والحجاز، ص ٦ .

(٣٧) من هذه المؤلفات التى نشرت فى تلك الفترة :

أ)الجانب المعارض :

١- محمد حسنين مخلوف «رسالة فى حكم التوسل بالانبياء».
٢- مصطفى بن احمد الشطى «النقول الشرعية».
٣- محمد الامين الحسينى «العقود الدرية».
٤- كشف الإرتياب فى اتباع محمد بن عبد الوهاب .
٥- محمد الحسين الكاشف «نقض فتاوى الوهابية» .
٦- محمد حسن القزوينى «البراهين الجليلة» .
٧- مصطفى الكريمى «رسالة السنيين فى الرد على المبتدعين» .

ب) الجانب المؤيـــد :

١- محمد رشيد رضا «الوهابيون والحجاز»
٢- محمد حامد الفقى «النجديه» .
٣- عبد الله على القصيمى «الثورة الوهابية» .
٤- البروق النجديه.
٥- سليمان بن سحمان «الضياء البارق» .
٦- تنبيه ذوى الألباب السليمة، هذا بالاضافة الى مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والمؤلفات النج
الاخرى التى تم طبعها بمطبعة المنار والمطبعة السلفية.